الكتاب الثالث

١- كان روجر في البداية كونتاً بين الكونتات(١)، غير انه كان رجلاً فعالاً ونشطاً، بارعاً في التصدي للمشاكل، وماهراً في تحريك ماكان مستقراً، وأقرض مالاً إلى وليم دوق لومبارديا [أي أبوليا] الذي كان هو تحت سلطته، وكان منطلقاً إلى فلسطين، وعلى هذا الأساس تسلم حكم لومبارديا بالضمان(٢)، وبعدما مارس الطرد ضدّ أسقف روما، بطريقة أنا مقبل على حكايتها، تمّ تكريسه ملكاً من قبله.

وعندما سمع الجالس على العرش [البابوي] في روما أن روجر قد تملك لومبارديا، امتلأ حنقاً تجاه هذا العمل الوقح، وادعى أن هذه البلاد تعود ملكيتها منذ زمن طويل إلى كنيسته(٣)، وقام لوثر بغزو لومبارديا بجيش كبير، وذلك بعدما ادعى أنه تعرض للتهديد، وانه يعارض سلب البابوية واهانتها، وقد احتل جزءاً عظيماً من البلاد، وبات على مقربة من طرد روجر من جميع البلاد، لكن روجر نسج —كما هي العادة— خططاً تآمرية، وطرد لوثر بلا قتال من هناك، وأنا سأحكي فيما يلي كيف حدث هذا:

كان للوثر قريب عن طريق الزواج، وكان صاحب سلطان عظيم في بلاطه، وعدّ من قبل الألمان الثاني بعد لوثر، ودون معرفة من لوثر، اتصل به روجر، فأفسده بالمال، وأقنعه أن يعطي اشارة انتهاء الحرب إلى الجيش الألماني، ولم يكن هذا بنفخ البوق أو أي شيء مشابه بل وفق عادة البرابرة وحماقتهم، وكان وفقاً للتقاليد يجري عزف نغمة محددة في المعسكر، بعدها يكون غير مسموح للعساكر بالبقاء، ولكن بمجرد سماع ذلك، يفترقون ويقوم كل واحد بالاستعداد للعودة، وسعى قريب لوثر خيانة إلى أن يتم عزف هذه النغمة بشكل مفاجيء، وبذلك سبب ارفضاض الجيش

وتبعثره مباشرة، وغضب لوثر مما حدث، وحاول ايقاف عملية اندفاع الحشود هذه، بايقاف خمسمائة رجل للقيام بذلك، لكنه لم ينجح، وتسلل الألمان وتبددوا، متجاهلين العقوبات والحرمان معاً، واستولى اليأس والرعب على لوثر، ومالبث أن أصابته حمى حادة، فارق بسببها الحياة، وطبقاً لما ذكرناه من قبل خلفه على الحكم كونراد(٤).

٢- وما ان حدث هذا حتى شدد روجر من قبضته على لومبارديا مرة ثانية، وقام أسقف روما، الذي لم يستطع تحمل هذا، بإقامة تحالف بينه وبين الألمان، وسارع بالعمل ضد روجر بحماس شديد[١١٣٩]، غير ان روجر ظهر بشكل مفاجيء، وعسكر أمامه، فهزم أتباعه، وأخذه أسيراً، وعندما أصبح في قبضة يده، أمر بنصب خيمة من الكتان، وجعل الأسقف يجلس فيها، وألقى بنفسه أرضاً ووجهه نحو الأسفل، ثم زحف على قدميه ويديه نحوه متظاهراً بطلب المغفرة لجريمته، وسائلاً تكريسه ملكاً، واستقبله الرجل الآخر عندما اقترب منه (ماذا كان بامكانه أن يفعل غير هذا؟) وعندها سماه ملكاً، ومنذ ذلك الحين فصاعداً، بات حاكم لومبارديا يحمل لقب ملك(٥).

وعندما نجح روجر في خطته، أرسل رسلاً إلى الامبراطور جون —وكان مايزال على قيد الحياة— يسأله الحصول على عروس ذات دم امبراطوري، لابنه، ولم تحقق السفارة هدفها عندما توفى جون، واتصل بعد مرور بعض الوقت بمانويل، الذي كان حاكماً للامبراطورية آنذاك، وصنع الطلب نفسه [حوالي١١٤٣-١١٤٤]، وبناء عليه توجه باسيل الذي كنيته اكسروس Xeros إلى صقلية للبحث في هذه المسألة مع روجر، وبعدما أغواه بالذهب، وعده ببعض الأشياء غير المرغوبة، كان على رأسها أن يكون في المستقبل كل من الامبراطور وروجر على سوية واحدة بالعظمة، وتلا ذلك قيام صراعات كبيرة، وعاد اكسروس إلى بيزنطة ليموت مباشرة، وبذلك لم يدفع عقوبة عمله المتسرع، وعالج

الامبراطور مسألة سفارته بمثابة عمل عابث، وأزاح روجر نفسه من تفكيره(٦) ،وغضب روجر، وعدّ المسألة مسألة خداع وغش، فأمر ببناء اسطول، ووضعه على أهبة الاستعداد، ينتظر لحظة مناسبة يتمكن فيها بطريقة مامن الانتقام من الرومان.

ونجح البربري في خططه، وفي ذروة تدخل أمم الغرب وخرقها للأراضي الرومانية، قام بنهب: كورنثا، ويوبيا Euboea ، وبيتين Boeotionفي طيبة [١١٤٧-١١٤٨]، وبما أن الجيش الروماني كان مشغولاً بالمشاكل التي يواجهها أمامه، فقد قام البرابرة بمهاجمة المدن المذكورة، دون أن يعترض سبيلهم أحد مطلقاً، وشحنوا سفنهم بالأسلاب، وعبر من هناك إلى كيركيرا Kerkyra (كورفو)، فاستولى عليها عنوة، مدعياً أنها ملكاً له، ثم حكمها حكماً مطلقاً(٧)، ولدى سماع الامبراطور بذلك غضب غضباً شديداً، وأعمل فكره في كيفية تمكنه من الانتقام من روجر، وأن يفرض عليه العقوبة التي يتطلبها مثل هذا العمل الوقح، وأمر على الفور باعداد اسطول فيه خمسمائة سفينة حربية، مع ألف ناقلة للخيول، وقام بشحن الاسطول، وفي الوقت الذي أخذ فيه الطريق البري، أبحر الأسطول وتجول هناك بأقصى سرعة ممكنة.

٣- وما ان وصل الامبراطور إلى فيلبه [بولفديف] حتى ذاعت اشاعة وعمت أفادت ان جيوش الكومان قد عبرت الدانوب، وكانت تقوم بنهب وسلب كل ما كان أمامها، حتى ان هذه الجيوش قد استولت على مدينة بارزة، قائمة على شاطىء الدانوب [١١٤٨]، وبهذا القدر والنوع كانت فحوى محتويات الاشاعة، لهذا غيّر الامبراطور اتجاهه، وخف نحو الدانوب من خلال أنكيالوس Anekialos [بوموري Pomorie]، وبما أنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى هناك، فقد شغل نفسه بالتجوال بالسهول هناك صائداً، لأن كميات هائلة من الوحوش قطنت على شكل قطعان في تلك السهول، ذلك انها كانت مهجورة تماماً وغير

مسكونة منذ زمن طويل.

وفيما هو مشغول هكذا، نقل إليه خبر أن الكومان كانوا يسوقون أمامهم في طريق عودتهم غنائم من الأراضي الرومانية، وأنهم عبروا للتو نهر الدانوب، وكانوا معسكرين على مقربة منه،وعندما سمع بذلك، بادر مسرعاً بالقدر الممكن نحو الدانوب، وصدف أن وجد هناك قارباً، من النوع الذي يصنع من جذع واحد، ويترك بالعادة على الشواطىء هناك، وأمر باحضار القارب إليه، غير أن الملاح كان عنيداً، وعندما سمع بأن الامبراطور يدعوه قال: «لو كان الامبراطور مهتماً بشؤوننا، لما سقطت ديمنزيكوس(٨) Demnitzikos (فهكذا كان اسم الحصن الذي استولى عليه الكومان كما سلف بنا الذكر) ولم تنهب ممتلكاتنا وتحمل ثم تؤخذ بعيداً من قبل الكومان دونما اعاقة»، ولدى سماع الامبراطور هذا الكلام، غضب غضباً شديداً، وأعلن: «تأكدوا، انني لن أكون الرجل الذي عهد الرب إليه بشؤون الرومان، إذا لم يدفع الكومان الغرامة عن عملهم الطائش».

وعلى هذا ترك بقية الجيش يقوم ببناء المعسكر هناك على الشواطىء، ولما كانت السفن لم تصل بعد —كما ذكرنا من قبل— قام بجمع القوارب وربطها مع بعضها، وعبر الدانوب مع خمسمائة من الأتباع، وواجه هناك نهرين كبيرين، ولعدم رؤية قوارب هناك يمكن استخدامها للعبور، أمر الذين كانوا معه أن يربطوا القوارب التي كانت على سطح الدانوب إلى ذيول خيولهم، ومن ثم نقلهم إلى النهرين المذكورين، ولدى انجاز هذا العمل، تمكنوا من العبور بسهولة، وجالوا بعد ذلك في طول المنطقة إلى أن وصلوا إلى جبل تلي—أورمان(٩) Teli-orman، الذي امتد على مقربة من حدود روسيا، ووجد معسكر الكومان خالياً تماماً من الرجال، (لأنهم انطلقوا راحلين منذ وقت قصير) ولذلك تابعوا تقدمهم.

وبما أن النهار كان قد شارف على الانتصاف، وما من أحد من العدو قد ظهر، اختار الامبراطور الكومان الذين كانوا يقاتلون إلى جانب الرومان، مع قائدهم جفردوس Giphardos ، وكان رجلاً مجرباً في عدد كبير من المعارك، وأرسلهم لملاحقة الأعداء، ولتتبع آثارهم، والاشتباك معهم عندما يكون ذلك ممكناً، وسار خلفهم بخطوات واسعة، لذلك لم يمض وقت طويل حتى اصطدم جفردوس مع العدو، ونظراً لعدم جرأته على الاشتباك معه (لأن عدد العدو قد ظهر له لايعدّ ولايحصى) أرسل إلى الامبراطور ورجاه أن يقدم بأقصى سرعة ممكنة، وعندما سمع الامبراطور بهذا، بادر إلى حمل سلاحه، وحملت القوة كلها أسلحتها، وانطلقت نحو مطاردة الكومان، ووصل الرومان إليهم ودنوا منهم، وفي البداية وقف الكومان صامدين لاستقبالهم، وعبأوا صفوفهم، ورغبوا في القتال للدفاع عن أنفسهم، وعن الغنائم التي ساقوها معهم، وتطور الصراع، من حملات كرّ وفرّ إلى اشتباك عنيف على كلا الجانبين، وكان عدد من الرومان شجعاناً يومذاك، غير أن الامبراطور كان أشجعهم، وعندما رصّ العدو صفوفه، انقض عليه بكل قوة وحمل برمحه فخرق سور دروعه، وقتل عدداً كبيراً من الأعداء ليس بشكل فردي، بل ازدواجي، وعندما تمّ صدّ العدو بحملة الامبراطور التي لاتقاوم، اندفع الرومان نحوهم بكامل القوى، وحققوا حملة رائعة، حيث سقط عدد كبير من البرابرة قتلى، وتمّ أسر مائة منهم، كان بينهم لازاروس Lazaros ، وهو رجل احتل مرتبة عالية في الشجاعة، وكان محترماً من قبل المقدمين بينهم، وحفظ باقيهم سرعة خيولهم، وانتشار أحراش الجبال، التي توفرت وامتدت بأعداد كبيرة، واسترد الرومان منهم جميع الأسلاب وعادوا، وحدث في هذا الوقت أيضاً أن تم تحرير سوتاس Sotas ، الذي كان —كما ذكرنا من قبل— [كذا] واسع الثراء عالي الأسرة، وكان قد وقع في أسر الكومان، وقد عاد إلى معسكر الرومان بمثابة لاجيء.

٤- بعدما حقق الامبراطور هذا النصر السريع والحكيم. تقدم الامبراطور نحو الأمام، ليعد العدة للحرب مع الصقليين، وبالنسبة لمسألة التعب العسكري، كان لايظهر عليه التعب، مع أنه —كما اعتقد— لم يكن أدنى من أي عسكري عادي، وليس حتى من الأباطرة أو القادة، وتقدم يفكر ببراعة حول صقلية وجميع ايطاليا، لكن بدا أن القدر رفض توقعاته المخلصة، وفهم بشكل جيد كيف ينهي قيادة علمية بشكل مضاد تماماً، بدون جهود، لأنه مع أن الكومان عادوا في الوقت نفسه، وكان هو نفسه قد وصل في موسم مناسب إلى المنطقة التي منها يتم الابحار إلى [كيركيرا]، لكن الأسطول قد تأخر، على كل حال إما بسبب ريح غير مواتية أو بسبب جهل أميراله بالأمور، ثم وصل متأخراً عن الوقت المناسب، فقد كان قد أقلع من موانىء بيزنطة في الربيع، غير أنه وصل إلى الامبراطور في الخريف، لذلك باتت أمور الرومان في وضع سيء، وصعد الامبراطور ظهر إحدى السفن الحربية، وأقلع الأسطول كله للعبور فوراً، لكن وقوع عاصفة غير متوقعة مع رياح شديدة أعاقت مشروعه، وكان البحر واسع الامتداد هناك، والابحار في الحقيقة خطير، لاسيما في الشتاء، ولهذا توجه إلى مكان قريب من بيرهويا Berrhoia [فيرويا إلى الغرب من سالونيك] وأمضى الشتاء هناك [١١٤٨-١١٤٩].

وأرسل قريبه بالمصاهرة ستيفن الذي ينبذه الناس بلقب كونتوستيفانوس [ستيفن القصير] [لأنه كان قصير الحجم]، أرسله مع الأسطول كله إلى كيركيرا، التي —كما ذكرنا— كانت آنذاك بأيدي الصقليين، وذلك بغية استردادها إلى الرومان، وبعدما وصل إلى المدينة وجرب كل نوع من القتال ضد أسوارها، وبينما كانت الأمور ماتزال متأرجحة، فقد حياته بطريقة أنا مقبل على حكايتها، فقد أنشأ سلماً طويلاً جداً، امتد أعلى من الأسوار الخارجية، وبوساطته قاد الجيش ضد

المدينة، وتساقطت مجموعات هائلة من الحجار المقذوفة من المجانيق في المدينة فوق السلم، وحطمته بالضربات، ونشرت شظاياه في كل مكان، ووصلت إحدى هذه الشظايا إلى الدوق، وأصابته إصابة قاتلة.

وشعر أن منيته قد دنت، وفكر في عقابيل هذا الأمر، مقدراً أن الخبر عندما يصل إلى الطرفين، سيسبب ربما الاحباط إلى الرومان، لكنه سيشجع الصقليين الذين كانوا يتقهقرون، لذلك أمر بتمديده بهدوء على ظهر سفينة، وأن يعودوا إلى القتال، وقام باستدعاء ابنه أندرونيكوس، الذي كان أصغر أولاده، والذي كان مقدم حملة البلطات، وأشار عليه أنه ينبغي على الرومان عدم التخلي عن الشجاعة، بل عليهم الآن النشاط بشكل خاص، لأنهم وقفوا غير بعيدين عن تحقيق آمالهم بالاستيلاء على المدينة، وكان هذا —كما أعتقد— تعبيراً عن روح الرجولة والشجاعة الحربية والوطنية، لكن ما ان كمل العمل وانتشر الخبر وعمّ بين الجميع، حتى سارت الأمور جميعها بالاتجاه المعاكس، فقد صدّ الصقليون الرومان، مع أنهم كانوا قد اعتلوا فوق الأسوار، وسادت الفوضى واستولى الاضطراب على كل شيء.

٥- وكانت أحوال الرومان كما يلي: كان الامبراطور حزيناً لدى سماعه بهذا، وعين أميرالاً مكانه، وأمره بالحفاظ على الحصار دون انقطاع، وبما أنه لم ينتج شيئاً يستحق الملاحظة، (لأن خصاماً تفجر فجأة بين الرومان والبنادقة، الذين قاتلوا كحلفاء لهم، وقد حرم هذا الخصام الجيش الروماني من النجاح) صمم الامبراطور نفسه أخيراً على الذهاب إلى هناك والانشغال بالحصار، وقام أولاً بانهاء الخصام فيما بين البنادقةوالقوات الرومانية، بايقاعه العقوبات المناسبة بحق المجرمين على كلا الطرفين، وإثر هذا هاجم بقوة الأسوار، وهكذا كان مشغولاً[١١٤٩].

غير أنه ما إن علم روجر طاغية الصقليين أن الامبراطور يصرف وقته

في كيركيرا حتى أرسل اسطولاً ضد الأراضي الرومانية، عازماً على ارغام الامبراطور على ترك الحصار، بإعماله العيث هناك، وقام الامبراطور، بفصل جزء من السفن التي كانت معه، وسارع بارسالها تحت قيادة كوروب، لمواجهة الصقليين، عندما —كما قلت— يهاجمون الأراضي الرومانية، وقام هو نفسه بتشديد الحصار على الصقليين بحدة أعظم، وأوقف أمام الأسوار سلالم عملاقة امتدت من السفن، وقاد الجيش صعوداً بصعوبة ومشقة، وانكسر أحد السلالم تحت ضغط ثقل الذين صعدوا عليه، وقذف بكثيرين إلى البحر، حيث لفظ هؤلاء التعساء أرواحهم، مخلفين إلى الرومان كمية كبيرة من الشجاعة، ومع أن الصقليين رأوا الرومان قد صاروا فوق الأسوار وفيها، كانوا على غير استعداد للتخلي عن المدينة للامبراطور، وسارعوا نحو الحصن بأقصى ماأمكنهم، ومن هناك كانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم، وأخذوا يسقطون على الرومان الحجارة والنشاب وأي شيء طالته أيديهم، مثل زخات المطر الساقطة من السماء، ذلك أن القلعة كانت ذات ارتفاع شاهق، وكان من المتعذر اصابتها بحجارة المنجنيق.

ثم إن الامبراطور قام وهو يغلي غضباً، بسبب سوء الحظ الشرير هذا، فوقف عالياً فوق ظهر السفينة التي كانت تحمله، وأمر المجذفين بالاندفاع بالسفينة نحو الأسوار، في محاولة منه —كما أعتقد(١٠) — للهجوم بنفسه، لكن بعضاً من القادة ومن أقربائه بالدم، بذلوا جهد طاقتهم، لايقافه والحيلولة بينه وبين تنفيذ رغباته، إن هذا ماأعتقده، لأنه كان على درجة عالية من الاقدام والشجاعة، ولقد سمعت بعض الناس يتهمه بالتهور، لكن المسألة انه امتلك إقداماً رائعاً وشجاعة فوق الشجاعة العادية، وفي الحقيقة، عندما كان في السادسة عشرة من عمره، أمسك بيديه بكثير من البرابرة وجعلهم أسرى، ولهذا قالت السيدة الألمانية التي تزوج منها [بيرثا—ايرين]٠ بادراك كامل بأنها انحدرت

من عرق محب للحرب كثيراً جداً، لكنها لم تر بينهم، ولم تسمع عن أحد قط قام بالتفاخر بمثل ما أنجزه في عام واحد.

ثم دنت إحدى سفن الاسطول الروماني من أسوار كيركيرا، ولم تكن من السفن الكبيرة الحمولة، كما أنها لم تكن من السفن المنخفضة والطويلة، بل كانت من السفن التي امتلكت ارتفاعاً كافياً وعرضاً مناسباً، وكانت مشحونة كلياً بالخيول، ومليئة بالسلاح، وحملتها قوة الريح إلى مكان خاص من السور، كانت أكوام الحجارة تغطي أطراف أرض الشاطىء هناك، مما جعل المكان شديد الصعوبة للوصول إليه، وفي الحقيقة مخيفاً، وصب عليها صخور كل منها بحجم عربة ونشاب وكل شيء كان متوفراً، ولهذا تخلى عنها الذين كانوا فيها بسبب ماحدث، وأصابهم رعب عظيم، وزحفوا مرعوبين تحت ظهر السفينة، وما ان لاحظ الامبراطور هذا حتى بادر فحمل بإحدى يديه ترساً لم يكن من الأنواع العادية التي تتخذ لحماية فرد واحد، لكنه كان من الترسة العراض، التي لم يكن من السهل على الرجل حمله، وأمسك باليد الأخرى وحرك بمهارة الآلة التي تزود بها بالعادة السفينة الامبراطورية، واستهدف من ذلك درأ نفسه من الرمايات التي كانت تأتي من الأسوار، حتى لاتصيبه احداهن، وأسرع نحو السفينة، وبعدما ربطها بالحبال، كان قادراً على جرها وانقاذها من المخاطر.

وروي أن الرجل الذي كان معهوداً إليه من قبل روجر بتسيير أمور كيركيرا والدفاع عنها، قال وقتها، وهو يرى الناس من المدينة وهم يقومون بقذف الحجارة نحو الامبراطور:

بحق خلاصكم، توقفوا أيها الجنود عن رمي أي سهم آخر نحو مثل هذا البطل، وإذا مالزم الأمر في تقديم تسويغ لهذا، فأنا نفسي سوف أتحمل غضب [الملك].

على هذه الشاكلة مضت الأمور هناك، وكان الأسطول الصقلي عندما اصطدم مع كوروب، هزم معظمه، ولم ينج من المخاطر سوى أربعين سفينة، وصلت إلى بيزنطة، وبعدما حاولوا النزول إلى البر هناك، لم يحققوا شيئاً يستحق الذكر، وعندما بذلوا جهودم في اشعال النار في المستودعات المنتشرة حول منطقة داماليس [جزء من أوسكودار] عبر القسطنطينية، غادروا المكان والعار يجللهم، وقد فقدوا كثيراً من رجالهم، ثم إن الذين هربوا من المخاطر لم ينجوا تماماً، لأنهم واجهوا سفناً كانت تنقل الخراج العام من كريت، وغدا كثير منهم أسلاباً للقتال.

وتمكن الامبراطور من الاستيلاء على مدينة كيركيرا بوساطة التجويع ووسائل الحصار، ثم انطلق من هناك، وفيما يخص صقلية والأرض الايطالية، وضع الخطط لاستردادهما في المستقبل لصالح الرومان.

٦- واكتشف أنه عندما كان يستعد للحرب في صقلية، عرف الألمان والصرب والهنغار بهذا وانضموا إلى تحالف مع بعضهم بعضاً في سبيل قتال الرومان من الغرب، كما وعرف أن يغي—باسان، الزعيم التركي، قد قرر نهب آسيا بالتعاون مع سلطان قونية، وسارع هنا الامبراطور بنفسه بالتوجه ضد الصرب، وكان متشوقاً لازاحة زعيمهم زوبان الكبير(١١)، الذي كان وقتذاك قد شرع بالنشاط، وأوكل الامبراطور أمر الأسطول كله إلى جون أكسوكوس Axouchos دمستق الجيوش الشرقية والغربية، وأمره أن يقف في أنكونا Ancona (أنكونا جزء من ايطاليا) وأن يتخذها قاعدة ينهب منها ايطاليا، وعلى كل حال، عندما وصل جون إلى نهر فيجوسي Vijose [في ألبانيا] قرر عدم التقدم أكثر، وفعل ذلك إما لأن هذا الدمستق أخفق في مجال الخبرة البحرية، أو أن قادة البنادقة أشاروا عليه بهذا خشية منهم أن يستولي الرومان على ايطاليا، وبذلك يتمركزون بمثابة جيران لبلادهم، وبذلك يستخفون بهم ويقللون من الرغبة بالتحالف معهم، وهكذا فإنه إما لهذا السبب أو ذاك لم ينجز

الدمستق شيئاً مما أمره به الامبراطور، لكن عبثاً أضاع وقته، ولهذا عندما هبت عاصفة مفاجئة (لأن الوقت كان قريباً من الاعتدال الخريفي) فإن كثيراً من السفن التي كانت متروكة ومهملة من قبل الأميرال تحطمت، وفي حين أن السفن التي كانت راسية عند النهر، كان من الممكن سحبها من أحد الطرفين، وتركها واقفة على شاطىء البحر(١٢).

وهاجم الامبراطور بلاد الصرب، وأخضع حصن راسون Rhason، ونهب كل شيء في جواره [١١٤٩](١٣) وبعدما وضع حشداً لايحصى من الناس في فوج الأسرى، تركهم هناك مع العساكر تحت قيادة قسطنطين الـ Sebastohypertatos ، الذي يكنيه الناس أنجيلوس(١٤).

وزاد الامبراطور من تقدمه، واستولى على منطقة نيكافا Nikava، التي كانت من ممتلكات زوبان العظيم، وأخضع جميع بقية الحصون التي كان قد بناها هناك، بدون جهد، ووصل إلى غاليتزا(١٥) Galitza، فوجد البرابرة يثقون بأعدادهم الكبيرة وبوعورة الأرض، ولذلك كانوا على غير استعداد للتخلي عن الحصن الذي كان هناك، وأقام الامبراطور معسكره، وأمر رجاله —دون أن يفقد وقتاً— برمي التحصينات بالسهام والحجارة من العرادات، وهكذا تمكن في اليوم الثالث من الاستيلاء عليه عنوة، فوجد فيه حشداً من البرابرة، عاد جزء منهم إلى طبقة الفرسان، والبقية كانوا من العامة، وقد اقتادهم جميعاً بمثابة أسرى.

وعندما وصل في طريق عودته إلى راسون، بعث بهم لاسكانهم في ساريديكا Sardika وفي بقية الأراضي الرومانية، وقد أخبره أنجيلوس أن زوبان كان ينتظر الفرصة بعد انسحابه، ليبدأ بقتال الرومان، ولم يلق مانويل سلاحه، وظل مشغولاً بالحرب، لذلك عاد بأقصى سرعة ممكنة، متشوقاً لمفاجئته، لكن زوبان، ما ان سمع باقتراب

الرومان، حتى اندفع نحو الممرات الجبلية، وهرب من الخطر بسرعة هائلة، ودخل الامبراطور إلى المنطقة، وقام في غياب من يدافع عنها بنهبها، وفي أثناء عبوره ألقى النار في أماكن الاستقرار التي أقامها على حذه زوبان العظيم من أجل بناء قصر له، وأحرقها.

٧- وما ان حلّ الشتاء القاسي [١١٤٩-١١٥٠)] ولأن الحرارة الجسدية تتمركز في المخلوقات الحية حول القلب، وفي كثير من الحالات يهاجم الجرح الأطراف، رأى مانويل أنه بات من المناسب التفكير بأخذ الطريق إلى بيزنطة، وقام في السنة التالية [١١٥٠]، عندما بات الفصل هو فصل الخريف، في ذلك الوقت الذي تغدو فيه الطرقات في بلاد الصرب بشكل خاص في متناول العدو، ولأن الاخضرار قد غادر الأشجار آنذاك، قام بحشد جيش في نيسوز Naissos ، وعندما عرف هناك أن قواتاً أرسلت من هنغاريا إلى الصرب، تنفيذاً للتحالف، أسرع في قيادة جيشه خلال المنطقة المعروفة باسم لونغوميروس(١٦) Lon-gomeros وذلك بهدف تمكين الجيش الروماني من الاشتباك مع الهنغاريين، الذين كانوا يزحفون على اليمين، ولدى وصوله إلى سافا Sava عبر من هناك إلى نهر آخر اسمه درينا Drina الموجودة ينابيعه في مناطق أعلى بعض الشيء، وهو الذي يفصل البوسنة عن بقية بلاد الصرب، والبوسنة نفسها غيرخاضعة لصرب زوبان العظيم، لكنها قبيلة قائمة بذاتها، وتحكم بشكل منفصل.

وسأبين على الفور لماذا اصطدم الهنغار بالرومان:

كان بين الصرب شخص بارز، لا أعرف اسمه، وكان أخوه هو بيلوس Belus ، وكانا معاً بارزين بين الصرب، وكان هذا الشخص متزوجاً من أخت زوبان العظيم، لكن لما حدث أن أصيب في إحدى عينيه، بطريقة أنا غير قادر على حكايتها، سافر إلى هنغاريا، وبعد امضائه وقتاً

طويلاً هناك بات عالي المكانة عندالملك غيزا(١٧) Geza بشكل خاص، ذلك انه أسهم في تربيته وتعليمه منذ الطفولة.

وبسبب هذه العلاقات الطيبة، سعى إلى جعل بلاد الصرب خاضعة بالتحالف إلى غيزا، وقد عرض هذا الأمر وناقشه في كل مناسبة ممكنة، وبذلك استطاع اقناع الرجل، بوساطة الطلبات الملحة، وبناء عليه عندما سمع غيزا أن الرومان كانوا يهاجمون بلاد الصرب، بعث بقوات من عنده تنفيذاً لتحالفه مع الصرب، وكانت هذه هي المناسبة التي جعلت الرومان يبدون مشاعر سيئة نحو الهنغار.

وبينما كان الجيش الروماني يتقدم، اصطدم الرومان الذين كانوا يتجولون لجمع المؤن، بالهنغار، وهم على الطريق نحو هدفهم، وجاؤوا وجهاً لوجه معهم، وما ان وصلت الأخبار عن هذا إلى الامبراطور، حتى بادر بارسال جون [كومينوس] (١٨) البروتوسيباستوس، وأرفقه بقوة لمساعدته، وما ان وقع الاشتباك حتى انهزم الهنغار من قبل الرومان، وفروا إلى أن وصلوا مجرى نهر ستريمون(١٩) Strymon [كذا] فتخلوا عن أثقالهم وجدّوا فارين بدون توقف، لكن الرومان تابعوا اللحاق بظهور الفارين إلى أن وصلوا إلى نهر تارا(٢٠) Tara ، وعندما لم يعد الرومان يلاحظون وجود من يقاومهم، فكروا بالعودة، وأقام الامبراطور معسكراً في وسط الطريق المؤدي إلى سيتزينيتزا(٢١) Setzenitza ، ولم يكن قادراً على معرفة مكان وجود زوبان العظيم، ولهذا مكث بعض الوقت متوجساً، وعندما سمع من الأسرى الصرب أن قواتهم كانت تنتظر وصول الحلفاء الهنغار، الذين دنا وقت وصولهم، حرك جيشه نحو الأمام، ولم يظهر أي خصم أمام الرومان من أي اتجاه حتى وصلوا إلى نهر تارا.

وعندما وصلوا إلى هناك، وبينما كانت الشمس ماتزال تمر بالأفق الغربي، رؤي حشد من الصرب شاكي السلاح، واستولى على الرومان

التعب والرعب، فعادوا لاخبار الامبراطور بما رأوه، وحكم الامبراطور بشكل صحيح أن القوة المشاهدة كانت قوة الهنغار المتوقع وصولهم إلى الصرب، وعلى الفور أعلم كشافة كوروب بما كان يتوقعه قائلاً: «ينوي الصرب الآن الانقضاض بشكل مفاجيء على الرومان» لأنهم كانوا معسكرين غير بعيد عن هاهنا، وبما أن الليل بادر إلى السقوط، فقد وضع خطة هي كما يلي:

لقد كان من عادة الرومان أثناء ذهابهم إلى الحرب، إذا ما أراد الجيش أن يتخذ موقفاً في أحد الأماكن، أن ينفخ بالبوق في أواخر النهار، وكان صوت البوق بالنسبة للحشود اشارة تعني أن عليهم منذ تلك الساعة البقاء في تلك البقعة، وبناءً عليه ولكي يتمكن من خداع الذين يعرفون العادة الرومانية، أمر بالنفخ بالبوق فوراً، غير أنه أفشى بشكل سري إلى القادة على انفراد بما كان قد خطط له: عندما تشرق الشمس، على كل واحد منهم أن ينتقي من الوحدة التي تحت قيادته كل من كان كامل التسليح، وأهلاً لأن يكون بين عناصر قوات النخبة، وأن يقف هؤلاء بكل هدوء بانتظار الأوامر منه، وخشية منه أن يتمّ كشفهم، أمر بلف الأسلحة بقطع من الأقمشة الرخيصة.

٨- وهكذا فعلوا، وعندما اقترب النهار، غادروهم برفقة المعسكر، وكأنهم ذاهبون لجمع المؤن، ولهذا الغرض أمر بعض الرجال المجردين تماماً من السلاح أن يسيروا في الطليعة ومعهم الكلاليب والمذاري، التي اعتاد أن يستخدمها الذين يجمعون المؤن للجيش في البحث عن الأطعمة في مخازن ماتحت الأرض، وأمرهم أنهم عندما يرون العدو زاحفاً ضدهم، أن يفروا حتى يلتحقوا بالرومان القادمين من خلفهم، وبذلك يكونوا آمنين، ومن أجل وصول المعلومات حول ماكان يحدث بالسرعة المتوجبة إلى القادة، أمر قائدين أن يمضيا في المقدمة، وأن يتبعهما على مسافة قريبة أربعة، ثم من بعدهم ستة، وإثر ذلك عشرة، وبعدها عدد

أكبر، وأمر بعدها بمركزة فرقة أخرى من النبالة، وأمرها بمحاربة الأعداء من جانب آخر، وتوجب انه إذا مابدأ الصرب بالقتال، أن تقوم الوحدات الأقل عدداً بالفرار، لكن إذا لم يهاجمها أحد، عليها أن تلتزم بالوقوف هادئة أمام المعسكر، وفعل هذا بغية أنه في الوقت الذي يبقى هو فيه مع القوة الأخرى، سيتمكنون من الحاق الهزيمة بالصرب أولاً، وبالوقت نفسه من الممكن قتل المهزومين بوساطة القوات الخفيفة التسليح.

وهكذا زحفوا نحو الأمام، وقبل أن يبتعدوا كثيراً، وصل بعض الكشافة يركضون نحو الامبراطور، وهم يولولون بصوت مرتفع، وفي الحقيقة كانت وجوههم مصفرة من الرعب تمام الاصفرار، وقالوا هناك جيش لايعد ولايحصى واقف ومعبأ على الطرف الآخر من النهر، ولم يكن جيشاً محلياً، بل فيه قوات لاتعد ولاتحصى من الحلفاء من فرسان الهنغار وكذلك كان بينهم قوة من الهراطقة الـ «الخاليسونيين Chalisioi » [الخزر اليهود]، لأنه في الوقت الذي كان فيه الهنغار يبجلون العقيدة المسيحية، كانوا يتبعون الشرائع الموسوية، حتى وإن كانت هذه الشرائع ليست جميعها نقية، وقال الكشافة: إن هؤلاء سيقاتلون إلى جانب الصرب ومعهم البشناق، وعندما سمع الامبراطور بهذا، احتاط خشية أن يتم تطويق الرومان الذين ساروا في الطليعة، ومن ثم قهرهم بالقوات المتفوقة عددياً، لهذا سار وهو شديد الاندفاع، وحثهم على اتباع حامل الراية، وبما أن ذلك الشخص اضطر إلى السير ببطء، لأن فرسه قد أعياه الزحف، فقد تناول الامبراطور نفسه الراية منه وتابع الطراد إلى الأمام، ولدى وصوله إلى نقطة بارزة هناك، جعل العدو يعرف من هو ويعرف الراية.

وفي الوقت نفسه وقف الرماة الذين وصلوا إلى النهر وجهاً لوجه مع الصرب، وبما أن أياً من الفريقين لم يبدأ القتال، وقفوا هادئين بلا حراك

تقريباً، وعندما ظهر العلم الامبراطوري ورآه الصرب، قاموا بالتخلي عن الجسر، وبذلك أعطوا الرومان الفرصة من أجل التناوش، ولدى ابصار الامبراطور هذا (لأنه وقف —كما ذكرنا— فوق مكان مرتفع بعض الشيء، يراقب ما كان يحدث) تقدم ليعبر الجسر بنفسه معهم، لأنه —كما ذكرت مراراً من قبل— كان يتحرك دوماً في المعركة على شكل فوق الطاقة البشرية، لابل حتى أعلى بكثير من مجرد الشجاعة.

ومع أن الذين تبعوه تألفوا من عدد قليل من الجند، فقد هرب الصرب حتى وصلوا إلى أرض وعرة، وانعطفوا من هناك، واقتربوا من الرومان، وعندما اشتبك الطرفان بالقتال، سقط قليل من كلا الطرفين، ولدى معرفة الصرب بوجود الامبراطور هربوا مجدداً، وتابع الرومان مطاردتهم فقتلوا عدداً كبيراً من الهنغار ومن الصرب أنفسهم، وسقط في ذلك الوقت في أيدي الرومان غرديشا Grdesa وفلسين(٢٣) Vlcin، وكان من أبرز الشخصيات بين الصرب، وبالنسبة للبقية، فقد رأى الامبراطور أنه من المهم جداً أن يصب عليه دروعه، وعندما أضاع بعض الوقت في هذا السبيل (لأن الذين كانوا يحملون الدروع لم يكونوا قريبين منه) كان بعض القادة الرومان، وكان من بينهم غيفاردوس Gi-phardos وميخائيل الذي كنيته براناس، بين آخرين كثر من القادرين على العمل على انفراد، وبارعين في القيادة، كانوا قد وصلوا إلى أماكن مستعصية وكثيفة الانحدار على طريق المطاردة، وكانوا في وضع يائس، لأنهم زحفوا نحو خطر واضح، وحيث أن الصرب قد تصوروا أنهم باتوا بعيدين جداً عن الرومان الآخرين انعطفوا ووقفوا مواجهين لهم.

٩- وفيما الرومان في هذه المآزق، كان الامبراطور قد أكمل لبس لأمته، فقام باللحاق بهم بسرعة كاملة، وعندما وصل إليهم وجدهم قد تجمعوا ووقفوا إلى جانب بعضهم بعضاً في بقعة منفردة، فتوجه إليهم باللوم والتوبيخ بكل حدة وبشكل علني، وأهانهم بأن وجّه إليهم تهمة الجبن

وجهل التكتيكات العسكرية، وعندما أومأوا إلى طبيعة الموقع وكثافة الثلوج، ركب بذاته الطريق بعد اختياره له، وأمرهم باتباعه، وفي تلك الأثناء وصل حشد من الرومان وانضموا إليهم، وفيما هم سائرون على طريقهم، خرج عليهم كمين للعدو كان مختبئاً، وقاتل الرومان من على الطرف الأيسر، ونظراً لادراك الامبراطور أن حجم الكمين كان صغيراً جداً، ارتأى عدم وجود حاجة للدوران والعودة، واستمر بالمطاردة دون راحة بغية إلقاء القبض إما على زوبان الكبير نفسه، أو على الذي تولى ذلك اليوم القيادة بين الهنغار، أو على واحد ممن شهر بالشجاعة، وبما أن الذين كانوا في الكمين لم يحققوا شيئاً يستحق الذكر، فقد تملصوا وابتعدوا من جديد.

وبعدما استأنف المطاردة لمسافة قصيرة، لاحظ الامبراطور أن أتباعه كانوا في مأزق حاد، فقام بتخليصهم، مستعيناً باثنين من أقربائه، كان أحدهما جون دوكاس(٢٤)، وكان اسم الآخر أيضاً جون ويحمل كنية كانتاكوزينوس Kantakouzenos الذي كان متزوجاً من [ماريا] ابنة أندرونيكوس السيباتوكراتور [أخو مانويل](٢٥)، فقد زحف معهما ضد الأعداء، الذين عرفوه من خلال لأمته (لأنها كانت مزينة بالذهب)، وعرفوه بسموه وبرشاقة جسده وبقوامه الذي لانظير له (كان في الحقيقة يشبه الأبطال [القدماء] وذلك بقدر ما كان متميزاً بفروسية لاشبه لها أبداً، وبقدرته على التعامل مع السلاح واستخدامه بكلتا يديه)، ولم يكن عاراً بالنسبة لهم ادارة ظهورهم فراراً، وفيما هو يقاتل ضد الفارين، روي أنه ألقى أرضاً بخمسة عشر واحداً من الأعداء بطعنة واحدة برمحه، ولأنهم سيقوا إلى حالة من الفوضى والاضطراب ضرب أحدهم الآخر لدى اختلال الصفوف، وبعدما رمى على الأرض بأربعين منهم ساق البقية وطاردهم، وأعمل الطعن والضرب باستمرار في الهاربين، مستخدماً السيف والرمح معاً.

ثم حدث شيء هو كما يلي:

كان واحداً ممن طعنه برمحه من قبل (لم تكن طعنته مميتة) قد استرد وعيه بعد سقوطه، ونظراً لاعتقاده أنه قد انتهى أمره، تحامل على نفسه وخرج من بين الجرحى، وعندما شاهد الامبراطور يقترب، سحب سيفه واندفع نحوه ليطعنه، لكن الامبراطور لبطه بقدمه على صدره، فألقاه أرضاً، وتجاوزه بعدما لاحظ أنه مصاب بجرح مرئي حول إحدى عينيه.

وفي تلك الأثناء شعر مانويل أن الإعياء لحق بحصانه بسبب ثقل السلاح، ومع هذا لم يرغب بالعودة، فأمر كانتاكوزينوس Kan-takouzenos (صدف أن كان وحده من بين رجال الامبراطور مثابراً إلى جانبه) بالتقدم نحو الأمام والاشتباك مع البرابرة، ذلك أنه بوساطة انشغاله معه، سيكون من الممكن له الايقاع بهم، ولقد نجح في مقصده هذا، فعندما اقترب جون [كانتاكوزينوس] بسرعة من الأعداء ضرب باكشينوس Bakchinos [باغين Bagin] (٢٦) على ظهره، وكان متشوقاً لتمرير الرمح فيه، ومع ذلك هو لم ينجح لأن الدرع قاومه، واستدار هذا الرجل فرأى أنه مطارد من قبل رجلين، لأننا —كما أسلفنا القول— كان جون الآخر مصاحباً للامبراطور، فجمع سبعة من أتباعه واشتبك مع كانتاكوزينوس، وصار القتال يداً بيد، وفي هذه الآونة عندما كان واحداً من البرابرة قادماً من أحد الاتجاهات، وآخر قادماً من اتجاه آخر، بات كانتاكوزينوس في خطر عظيم، ولولا أن الامبراطور ظهر إلى جانبه، وأنقذه من الخطر، أظن أن الرجل، ماكان لينجو من أن يصبح ضحية لسيف البرابرة، كما أن الامبراطور نفسه لم يكن بعيداً بالمرة عن المخاطر، لأنه عندما لاحظ أنه إذا ماتصدى للسبعة الذين كانوا يطوقون جون، سيكون بإمكان الآخرين الذين يصل عددهم إلى ثلاثمائة القتال على الجانبين، لذلك قرر ان عليه الاشتباك مع القوة الرئيسية أولاً، وعندما تخلى هؤلاء عن القتال وهربوا، بات من المتصور أن الذين كانوا يطوقون

جون سيقومون أيضاً بالانسحاب، فقام بغمز حصانه، واندفع فكان في وسطهم، وعزم على طعن واحد منهم برمحه، غير أنه لم يصبه، لأنه عندما استدار البربري على ظهر حصانه، مرّ الرمح إلى طرفه دون أن يصبه، ثم اشتبك معه يداً بيد.

ولدى ملاحظة باكشينوس هذا قام بنفسه ومعه أتباعه بترك جون هناك، وحملوا بكل سرعة على الامبراطور، وكانت الحادثة محشوة بالرعب، وقام الامبراطور بإلقاء رمحه والتخلي عنه، وجرد السيف الذي كان يحمله، وشرع يضرب ويتلقى الضربات وهو يدور حولهم وبينهم، وإلى أن تفرق البقية، تطورت نتيجة المعركة وتمحورت حوله نفسه وحول باكشينوس الذي كان مشهوراً بشجاعته، ويمتلك بنية بدنية هائلة، وبعد اشتباك طويل، وجّه باكشينوس ضربة أوصلت سيفه إلى فك الامبراطور، ومع هذا لم يستطع قطع واقية [سلسلة اللأمة] التي تدلت من الخوذة فوق العينين، وكانت الضربة —على كل حال— من القوة بما يكفي لجعل الحلقات الموضوعة فوق الجلد تضغط بعمق عليه، وبعدما حرم الامبراطور البربري من إحدى يديه بوساطة سيفه، سلمه بسرعة إلى قريبه [جون كانتاكوزينوس]، وفي الوقت الذي كان فيه عديم الصبر يريد مهاجمة العدو ثانية، بذل كل من جون والبربري باكشينوس جهدهما لايقافه عن الحملة، لأن هذا الأخير كان قد أعلن عن طاعته، وتظاهر بالصداقة، فعندما كشف عن شعر رأسه، أعطى بذلك شارة [استسلامه] للغوغاء الذين كانوا قادمين للقاء به، وحرم كانتاكوزينوس في هذا الصراع من اصبعين من إحدى يديه، وعاد الامبراطور نحو المعسكر، وهو يدفع أمامه حوالي أربعين أسيراً من الأعداء، وتذكر هناك الرجل الذي رماه أرضاً وخلّفه وراءه، وذلك بعدما حفظ العلامة فوق عينه، وطلب البحث عنه في المعسكر، ذاكراً علامته الفارقة، وبذلك وقف عليه، وعرف الرجل المهزوم، وعُرف من قبله.

ووصل قبل مضي وقت طويل إلى المعسكر رسول من عند زوبان العظيم، هو [بيرفوسلاف أوروش الثاني Pervoslav Uros] يطلب العفو عن جميع ماإقترفه من أعمال، وبناء على طلب من الامبراطور جاء الرجل بعد وقت قصير، وقدم نفسه بمثابة تائب متواضع، وقبل الامبراطور توبته، وعفا عن ذنوبه، وبعدما نهض [زوبان العظيم] قليلاً، وارتفع عن سطح الأرض، وذلك بعدما رمى بنفسه على قدمي الامبراطور، تعهد بالأيمان بما وافق عليه، وأعلن أمام العالم أجمع أنه سيكون خاضعاً للرومان، وإذا ماأراد [مانويل] القيام بحملة في الغرب، وافق على أن يلتحق به ومعه ألفين من رجاله، أما بالنسبة للقتال في آسيا فلسوف يبعث بمائتين من الرجال وذلك بالاضافة إلى الثلاثمائة التي اعتاد من قبل على ارسالهم.

أما وقد نجح في هذه الأشياء، فقد عاد الامبراطور إلى القسطنطينية، وعاد في الوقت نفسه الاسطول الذي لم ينجز شيئاً في ايطاليا، إلى بيزنطة، وحافظ الصرب إثر هذا على خضوعهم للرومان، وبعد مضي عدة سنوات، وبعدما طردوا من الملك أوروش الثالث، قاموا بدون رضا من الامبراطور بمنح الملك لواحد من اخوانه، وكان واضحاً أن الامبراطور سيغضب منهم لما حدث، وخشية منهم أن يقوم باستدعاء كل من ديسا Desa وأوروش إلى حضرته، قائلاً بوجوب اطاعتهم لمن سيعينه عليهم، حاولوا ايجاد حل للقضية بأنفسهم، فأخفقوا، ثم كان أن عاد أوروش إلى منصبه ثانية، كمنحة له من الامبراطور لكن هذا حدث بعد مضي بعض الوقت [حوالي١١٥٥].

١٠- وزحف الامبراطور على هنغاريا، عاداً تحالفهم السالف الذكر مع الصرب، حجة لاعلان الحرب عليهم، ولم يفاجئهم بالقتال، لكنه راسلهم أولا مبينا لهم سوء تصرفهم نحوه، وحذرهم من الهجوم الروماني الوشيك، وعندما وصل إلى شاطىء الدانوب [خريف١١٥١] لم تكن

السفن التي تمّ اعدادها في بيزنطة قد توفرت وحضرت أمامه، وخشية منه أن تذهب الفرصة التي تهيأت سدى، وبحثاً منه عن شيء يفيد في مثل هذه الحالات ويساعد على النجاح، أمر بصف قوارب جذوع الأشجار التي كانت ملقاة على الشاطىء هناك، وأسرع نحو الشاطىء الآخر لنهر [السافا Sava] ، حيث قام بجر فرسه بمقوده ولجامه، وبعدما عبر الجيش الروماني على هذه الشاكلة، وضع هنغاريا تحت قدميه، وبينما كان هذا الجيش يتقدم نهب بدون رحمة كل شيء عثر عليه في طريقه.

وكان يوجد على إحدى ضفتي النهر هناك قلعة اسمها زيوغمينون Zeugminon [أو زيوغمي—زيوم الحالية]، وكانت مجهزة بأسوار قوية وبدفاعات أخرى، ولما وجد استحالة الاستيلاء عليها فوراً، ترك هناك ختنه ثيودور باتاتزس مع جيش، وقام باجتياح جميع القرى هناك، وحمل تقريباً كل من كان فيها أسرى، ووقتها جاء جيش هنغاري لمواجهة الرومان، ولدى ادراك هذا الجيش أنه كان يحاول المستحيلات، ذهب إلى الامبراطور، وإثر ذلك تدبر الأمر وحمل كل شيء دون تدخل من أحد، وبعد هذا بات من الممكن رؤية أجيال بكاملها تزحف مأسورة مع أمم تتحرك مهاجرة، وفرغت الجزيرة بكاملها [كذا]، وأعني بذلك الجزيرة التي يشكلها كل من نهري الدانوب والسافا، فأثناء تدفقهما وجريانهما من الألب إلى هنغاريا ينفصلان عن بعضهما في الأعالي، وبعد عملية دوران كبيرة يجتمعان معاً ثانية، لقد فرغت هذه الجزيرة من سكانها، ثم قام الرومان بتمزيق المساكن الملكية، وهو أمر جدير بالتدوين بين أعظم انجازات الرومان ونجاحاتهم.

ونجح الامبراطور في هذا، وإثره عاد إلى زيوغمنون، حيث —كما ذكرنا— كان قد ترك باتاتزس الذي حافظ على الحصار، غير أن الذين كانوا يديرونها من الداخل بإحكام حافظوا عليها وظلوا متملكين لها

ماداموا يأملون بأن الملك سيصل إلى عونهم بعد وقت قصير، لكن بما أنه لم يرد في الأخبار حديث عن وجوده في أي مكان قريب، وكان الرومان على أهبة الهجوم على الأسوار، ولكراهيتهم البقاء تحت المخاطر، فقد سألوا الامبراطور عما إذا كان يمكنهم تسليم القلعة إليه، بشرط مغادرتهم لها وأجسادهم سليمة حرة، وعندما رفض هذا ربطوا رقابهم بحبال، وجاؤوا كاشفين عن رؤوسهم، وبذلك أخضعوا أنفسهم إلى الامبراطور بكل خنوع، ومنع الامبراطور الرومان من التعرض لأي منهم بالقتل، غير أنه نهب القلعة وكانت مشحونة بمؤن لاتعدّ ولاتحصى.

١١- وبعدما حقق الرومان هذا، بادروا إلى جواز السافا، وهم يقودون أجيالاً من الهنغار أسرى، وكان عددهم أكبر بكثير من تعداد جيشهم، لكنهم ماكادوا يعبرون حتى وصلتهم أخبار قالت بأن ملك الهنغار، قد نجح للتو في إنهاء حرب في غاليشيا Galicia ، التي كانت مقاطعة روسية، وهو قادم بسرعة عظيمة لمواجهة الرومان، وتحت امرته قوات عظيمة.

وإنه بشكل خاص بسبب حربه لغاليشيا كان الامبراطور يعاقبه، لأنه [غيزا] قام نكاية بمانويل بمحاربة فلادميركو (لأن هذا كان هو الاسم الذي أطلق على أمير غاليشيا) الذي كان حليفاً للرومان(٢٧).

ولدى سماع الامبراطور بهذا أمر بقية الجيش، والذين كانوا في قطار الأثقال وحشود الأسرى التي كانت فوق الحصر، والتي كانت قد عبرت النهر، بالبقاء على الطرف الآخر من النهر، وبعدما أخذ النخبة من جيشه، بادر نحو الاصطدام به [غيزا]وسعى إلى ذلك بأعظم سرعة ممكنة، ومع أن القادة عارضوا خططه بكل قوة، فقد أوضح مانويل لهم أن الهجوم على قطيع من الماشية هو عمل الذئاب وليس الأسود، لكن عندما يظهر الرعاة أو الكلاب من أي مكان لايشعرون بالعار إذا مافروا،

ويعنون بذلك فقط أنهم نادراً ماكانوا قادرين بكل صعوبة على الحفاظ على فريستهم.

ثم كان أن حدث أمر، إذا ماكان قد بدا له لدى اختياره له صحيحاً، فأنا لاأوافق عليه، لكن إذا كان الاختيار قد تمّ بناء على تبصر أو بعد نظر حتى يبذل الرومان غاية جهدهم ليكونوا على درجة عالية من الشجاعة، فأنا أرى في ذلك مثلاً رائعاً من أمثلة الابداع العسكري، ذلك أنه عندما كان يعد العدة للانطلاق من السافا إلى مواجهة الهنغار، وجه الأوامر إلى الشخص الذي عهد إليه بقيادة الأسطول بالبقاء راسياً مع سفنه على الطرف الآخر من النهر، حتى إذا ماجاء أي واحد من الرومان طالباً الالتجاء، إلى الضفة الأخرى من النهر ونقله إليها، عليه أن يتظاهر بعدم رؤية ذلك الشخص، وقال: «إذا ماجئت أنا نفسي الامبراطور إلى هناك ورغبت إليك بشيء يتعدى الأوامر الحالية، عليك أن ترفض ذلك، وإذا لم تفعل هذا لن تنجو من عقابي المباشر»، وهكذا أعدّ الأمور، فاتحاً بذلك باب الشجاعة —كما أعتقد— لجنوده، وذلك حسبما ذكرت من قبل، لأنه عندما تنعدم الفائدة من الخوف، يبات من الضروري أن يكون الانسان شجاعاً حقاً.

وفيما هو على نية الانطلاق، جاء إليه واحد من الأسرى الرومان، ملتجئاً إليه بعد فراره من عند الهنغار، وأخبره أن ملك الهنغار قريب الوصول، وعندما سمع الامبراطور هذا، لم يعد قادراً على ضبط نفسه، خشية أن تصل القوات الهنغارية فوراً، وأن تبدو وكأنها تقاتل الفارين الرومان، لذلك عبأ قواته ونظم صفوفها، وانسحب، وبما أن ملك الهنغار —على كل حال— لم يكن هو الواصل، بل بيلوش Belus` الذي شغل أعلى مرتبة بينهم (دعا الهنغار هذه المرتبة باسم«بان»)(٢٨) وكان قد دنا وصوله، أسرع مانويل نحوه، ونظراً لحلول الظلام، ترجل من على ظهر حصانه ونام بسلاحه، فوق ترسه المقلوب، وأمضى الجيش كله الليل على

هذه الحال نفسها، وفي اليوم التالي علم بيلوش باقتراب الامبراطور، فقام بالمغادرة ومعه قواته كلها، بعدما فبرك بعض الأعذار الواهية، وبذل بيلوش غاية جهده لتعليل فراره، فأعلن أنه مأمور من قبل الملك بالتحول عن الطريق المرسوم، والذهاب إلى مدينة برانيتشيفو Bra-nitshevo وبذلك يتمكن من محاربة الرومان بشكل أفضل هناك.

وتمنع الامبراطور عن مطاردته، وعبر نهر [السافا] وتوجه إلى برانيتشيفو، وعسكر هناك، وبعد مضي بعض الوقت عزم على نهب جزء آخر من هنغاريا، حيث الجبال التي يطلق عليها المحليون اسم تيميسس(٢٩) Temises فبعث بالقائد بوريس Boris مع جيش، وبوريس هذا نفسه قيل إنه جاء من الأبوين نفسيهما مثل غيزا، ولكن بسبب بعض الخصومات التي وقعت منذ زمن طويل مضى، جاء إلى عند الامبراطور جون ملتجئاً(٣٠)، وقدم له جون مايكفي من التشريف، ووحده معه عن طريق القران بزوجة من أسرته الخاصة، وعندما وصل بوريس هذا إلى المنطقة، قام بالاغارة على البلدات هناك، التي كانت مكتظة بأعداد كبيرة من السكان، وكانت مثقلة بكل نوع من الأشياء الثمينة، ثم إنه اصطدم بثلاث فرق هنغارية، وأوقع هزيمة قاسية بهؤلاء الذين تصوروا أن الامبراطور كان موجوداً، ولدى انسحابه، عاد إلى المعسكر الروماني محملاً بالأسلاب من هناك، وبعدما عرف الملك أن بوريس هو الذي صنع هذه الأفاعيل المرعبة في هنغاريا، قام بملاحقته، متشوقاً إلى قتاله، ومع ذلك لم يتمكن من الالتقاء ببوريس، الذي كان قد عبر الدانوب ليلاً، معتمداً ضوء المشاعل، التي كان الامبراطور قد أشعلها له بأعداد كبيرة من المعسكر، ثم إن اثنين من أفراد فرقة الرجالة، اللذين خلفا على الضفة الأخرى، اختبئا هناك تحت الأحراش، بعد وصول الهنغار، ونجحا بالنجاة.

ومكث الامبراطور بعد هذا النجاح هناك ليقوي بقدر الامكان المدن

الباريسترينية Paristrian [القائمة على امتداد الدانوب أو «ايستر Ister»]، وكان في نيته عبور الدانوب مجدداً والاصطدام بالملك، الذي كان هو نفسه معسكراً على الدانوب على الضفة المقابلة، ولدى معرفته بهذا، وخوفاً منه فيما يمكن أن يأتي به الحظ، وخشية منه (غيزا) أنه إذا ماهزم هذه المرة، فإن هذا سيورط الباقي من القوات الهنغارية ويقودها إلى الدمار، لهذا كله قام بالاتصال بالامبراطور، وبحث شروط السلام، وإثر هذا وبناء عليه، عاد الامبراطور إلى بيزنطة واحتفل بالنصر، وقدّم للرب شكراً عظيماً.

وفي هذه الآونة، ولد له أول مولود، وكان ابنة رائعة الجمال من الأوغسطه [بيرثا] ايرين، وأطلق عليها اسم ماريا، واحتفي بها بمثابة امبراطورة(٣١).

١٢- وفيما الرومان منشغلين بهذه الأحداث، وصل روجر [الثاني] طاغية صقلية إلى نهاية حياته[١١٥٤]، وكان ابنه وليم [الأول] الذي تسلم الحكم واعياً تمام الوعي وعارفاً بجرائم أبيه ضدّ المملكة الرومانية، فارتأى أن عليه ارسال رسل إلى الامبراطور لتسوية خلافاتهما، وبناء عليه جاء رجال، قام كل واحد منهم بالبحث مع دائرة من الدوائر الكنسية، وكانت مقترحات السفارة كما يلي:

لقد وعد بإعادة جميع الأملاك والأشخاص —الذين كما سلف في الرواية— كان روجر قد حملهم [في سنة١١٤٧] بالسفن من يوبويا Eu-boea وطيبة في بلاد الاغريق ومن كورنثا، ووافق على أن يخدم الامبراطور، وأن يكون جاهزاً حيثما أراد(٣٢).

غير أن الامبراطور رفض السفراء، وقام بإعداد اسطول من السفن، حمل عليه جيشاً تحت قيادة قسطنطين الذي كنيته أنجيلوس، والذي هو خاله، وأمره أن يرسو في مكان ما حول لاكونيا Laconia، وأن ينتظر

بقية الاسطول الذي كان وشيك الوصول، وبناء عليه أقلع من بيزنطة ووافته ريح طيبة، لذلك رسا عند رأس لاكونيا، الذي يعرف بشكل عام باسم مونبمباسيا (أي المدخل الوحيد) وذلك صدوراً من شكل المكان.

وعلى كل حال، علم الامبراطور، أن غيزا ملك الهنغار، الذي كان منزعجاً لما حدث من قبل، قد عزم على مهاجمة المدن الباريسترينية بشكل غير متوقع، وبادر الامبراطور مسرعاً ليصل قبل المحاولة [١١٥٢]، وهكذا عاد إلى شواطىء الدانوب بأقصى سرعة ممكنة له، ووقف أمام الجيش الهنغاري الذي كان معسكراً على الطرف الآخر، ولم يرغب أي واحد من الطرفين —لبعض الوقت— بالدخول في المعركة، خاصة وأن الرومان لم تكن سفنهم قد توفرت بعد، وتمكن الرومان بعد مضي عدة أيام من بناء أكبر عدد ممكن من القوارب الخفيفة، اعتماداً على المواد التي كانت متوفرة، وسحبوها إلى النهر، ولاحظ الملك الهنغاري ماكان يحدث، وكما ذكرنا، خشي أن يهزم للمرة الثانية فتدمّر مملكته، لذلك لجأ إلى طريق المفاوضات، وقام بارسال سفراء من عنده طلبوا ألا تعاقب هنغاريا بحرمانها من أكثر من عشرة آلاف شخص، وأن يسترد البقية من حشد الأسرى، وبموجب ذلك أعلن أنه سيبقى صديقاً إلى الرومان طوال حياته، وأنه سينتظم بين حلفائهم إلى الأبد، وبعدما عقد اتفاق السلام طبقاً لهذه الشروط، شرع الجيش الروماني بالعودة من هناك(٣٣).

١٣- هكذا كانت أحوال الأوضاع على الأرض، لكنها انتهت على البحر بالطريق المعاكس بسبب حماقة القائد [١١٥٤]، فقد علم أنجيلوس، أن أسطول وليم كان عائداً من الأراضي المصرية ونهر النيل، مشحوناً بالغنائم والثروات من هناك، فعزم على تحقيق انجاز كبير، ولهذا أقلع نحو البحر بقدر ماأوتي من سرعة، ليلتقي به، وذلك دون أن ينتظر وصول بقية الأسطول من بيزنطة، ومع أن الامبراطور قد اعترض مراراً على هذا، ونصحه بوساطة الرسائل وبين له أنه لاينبغي لقوة صغيرة أن

تدخل في صراع مع قوة أكبر منها بكثير، وأكد أن مامن شيء سيحول بين أنجيلوس نفسه وبين أن يؤسر من قبل البرابرة، وتقع الواقعة، ولايعود من هناك —كما يقول الناس— مخبر [Angelos] يخبر بما حدث، وأصغى أنجيلوس إلى هذا قليلاً، ولذلك دخل في معركة مع الأسطول الصقلي لحظة ظهوره.

واستدار الصقليون في البداية وانسحبوا في نظام جيد، لكنهم عندما أدركوا أن الرومان كانوا في فوضى عظيمة، وأنه من الواضح أن عدد سفنهم أقل عدداً مما لديهم، استداروا مسرعين، وعادوا مندفعين نحوهم، وحدث آنذاك أن الريح التي كانت ساكنة فوق السواري الرومانية، تحركت فجأة إلى زوبعة عاتية، وهنا قامت بقية السفن الرومانية، التي هي تحت امرة أنجيلوس آخر، كان أخاً للأميرال الرئيسي (كان يقود عدداً ضئيلاً من السفن) بالفرار بشكل فوضوي، أما بالنسبة لقسطنطين [أنجيلوس] الذي بقي في وسط الأعداء، فقد وقع في أيديهم، وهكذا نال جزاء حماقته، وبعدما فعلت السنة هذه الأفاعيل المغيرة، انتهت(٣٤).

١٤- وسمع الامبراطور أن الحاكم الهنغاري قد أعلن العصيان مجدداً، (كان لايستطيع تحمل مثل هذه المواجهات العدوانية) لذلك ركب الطريق عائداً إلى الدانوب، وبما أن الطرف الآخر كان مرعوباً لدى اقترابه، لذلك فتح باب المفاوضات حول السلام، وهكذا انتهت حربهما، وأشرقت ابتسامة منافع السلام [١١٥٣](٣٥)، وبعد وقت قصير —على كل حال— عندما هيأ ابن عمه أندرونيكوس مناسبة، قام غيزا مجدداً بمقاتلة الرومان، غير أن هذا حدث فيما بعد.

ففي ذلك الوقت [١١٥٢] أرسل الامبراطور أندرونيكوس هذا إلى كليكية وايزوريا، وذلك بعدما سماه قائداً أعلى للحرب هناك، لأن طوروس الأرمني، وكان رجلاً عالي المكانة، قد وقع في أسر الامبراطور

حين، وعندما قام الامبراطور بحملة على الحدود الايزورية [أي الأرمنية] عاد طوروس إلى كليكية هارباً من بيزنطة [حوالي١١٤٥]، وحاول إثر اعلانه العصيان أن يجعل المدن هناك تثور لتتخلص من السلطة الرومانية(٣٦)، ولهذا السبب أرسل الامبراطور أندرونيكوس، وبعث أيضاً بالقيصر [جون روجر] بغية الاقتران عن طريق الزواج بكونستانس، زوجة الأمير ريموند [صاحب انطاكية] الذي كان قد فارق الحياة،بطريقة أنا مقبل على حكايتها:

حاول البرابرة الذين يقطنون في تلك الأحواز احتلال إحدى القلاع بعد حصارها، وهذه القلعة قائمة على مقربة من حلب، وكانت تدفع الجزية إلى الانطاكيين، وقد حاولوا ذلك بعدما علموا بقلة المؤن فيها [١١٤٩]، وكان ريموند متفوقاً بالنشاط العسكري وفعالاً أكثر من أي انسان آخر، لذلك ما ان سمع بذلك حتى بادر على رأس القوات المتوفرة لديه نحو القلعة، ونظراً لانسحاب الأعداء ولعدم انتظارهم له، اكتفى بتزويد القلعة بالمؤن والعتاد، ثم كرّ راجعاً، وكان الوقت عصراً، ولذلك بدا له أن الأفضل هو متابعة السير، لأنه لم يكن هناك مكان قريب، يمكنهم بأمان الترجل والعسكرة فيه، وكان الذين معه قد أصيبوا بالانهاك الشديد بسبب الرحلة، فقد أرادوا العسكرة في أي مكان هناك، وقد أروه مكاناً محاطاً غالبيته بالمستنقعات، وبقيته مغلق بالتلال والشعاب البارزة هناك، ومع أنه كان عنيداً، فقد أعلن، وهو يشير إلى التل، «انه يخشى أن الأعداء إذا ماقاموا بهجوم ليلي، فسيجدون المكان مغلقاً ليس فيه منفذ للخروج لنا، ووقت ذاك سنكون غير قادرين على الدفاع عن أنفسنا، وسنذبح مثل الشياة المحصورة في حظيرة»، وهنا قام واحد من الذين كانوا معه فألقى متسرعاً نحو الرجل بكلمات قاسية، وأعلن أن هذا التردد مصدره الجبن، وليس الحكمة، وسمح ريموند لغضبه وعناده أن يسيطر عليه فقال: «إنني أعرف أيها السيد النبيل، أننا

إذا مارحلنا من هنا وغادرنا هذا المكان، أنك لن تتوقف مطلقاً عن اتهامنا بهذا، لذلك سوف نعسكر هناك، مادام ذلك يبدو مناسباً لك، لكن انتبه لنفسك، ولاتكن عاجزاً عن التعبير بالأفعال عن الشجاعة التي أعلنتها هنا بدون حاجة إليها، ولاتخف ولاترتعب عندما تنقض الأعداء علينا من المكان الذي قمت أنا بذكره»، وما ان أنهى ريموند كلامه هذا حتى دخل إلى ذلك المكان، الذي كان مناسباً لفصله والاحاطة به كلياً، وبعد مضي قسم طويل من الليل، هاجمهم الأتراك من الاتجاه الذي ذكره وقتلوا خيولهم وقتلوهم هم أنفسهم، دون أن يكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم، أو حفظ ذواتهم(٣٧).

إنه في ظلّ هذه الظروف، وضمن هذه المعطيات ذهب القيصر جون إلى انطاكية[١١٥٢]، لكنه لم يحقق شيئاً مما جاء من أجله، (لأنه كان مسناً، ونظرت كونستانس إليه بدون سرور ورغبة) وعاد إلى بيزنطة، وعندما نزل به المرض، حلق شعر رأسه، ولبس اللباس الأسود الذي يرتديه [الرهبان](٣٨).

١٥- وعندما جاء أندرونيكوس إلى كليكية[١١٥٢]، ووجد طوروس مقيماً في المصيصة، شرع بحصارها ومعه الجيش كله، وكان من الممكن له أن ينجز بسرعة شيئاً مفيداً، وأن يلقي القبض على المتمرد، بسهولة كبيرة، لولا أنه كرّس نفسه وأوقفها على اللهو واللعب في خيمته، وهكذا حبطت شؤون الرومان وهوت، لأن طوروس عندما تعرف إلى عجز أندرونيكوس، ولاحظ التوافه التي شغلته بلا فائدة، انتظر قدوم ليلة ظلماء بدون قمر، فرمى بأجزاء كبيرة من سور المصيصة، وقاد بشكل غير متوقع جميع قواته، وهاجم الرومان الذين كانوا غير مستعدين تماماً، وألحق بهم هزيمة شنعاء، وبعد مضي وقت طويل، علم أندرونيكوس بهذا، (لأنه كما ذكرت مارس اهمالاً كبيراً جداً)، فما كان منه إلاّ أن امتطى ظهر حصانه، وحمل وبيده رمحه، وأظهر أفعالا رائعة وقدرة عظيمة (لأنه

كان كما ذكرت مراراً [كذا] متفوقاً على غيره بالشجاعة ولا ندّ له في ميدانها) غير أنه عندما وجد نفسه غير قادر على انجاز أي شيء، انهزم بصعوبة كبيرة، ووصل إلى انطاكية، وفي أثناء ذلك القتال، حدث أن تعرض ثيودور كونتوستيفانوس، الذي وصل إلى مرتبة سيباستيو -Se bastoi ، لفقدان فرسه برمية سهم، وحرمانه من رأسه بوساطة أحد المرتزقة الرومان، الذي كان يكن له عداوة قديمة، لأن ثيودور كان —كما قيل— قد طرد هذا الشقي من البلاط الامبراطوري منذ وقت طويل انقضى بسبب سوء أخلاقه(٣٩).

١٦- لقد كان هذا ماوقع في كليكية في ذلك الوقت، وعندما عاد أندرونيكوس من انطاكية إلى بيزنطة، لم تتأثر مكانته في القصر، وعلى عكس ماكان متوقعاً تمتع بحقوق خطابته السالفة، وقد قيل، بأن الامبراطور قد استقبله على انفراد، ووبخه بمرارة، ووجه اللوم إليه لإهماله للشؤون العسكرية، وأدان تهاونه وتراخيه غير المسوغ، وكان —على كل حال— يبدي نحوه في العلن تشريفاً وتقديراً فوق الآخرين، ويتحفه بأعطيات فخمة، وبالفعل قام فيما بعد بتعيينه حاكماً لكل من نيسوس وبرانيتشيفو Branitshevo ، وإضافة إلى هذا منحه كاستوريا Kastoria [١١٥٣].

هل كان أندرونيكوس يسعى جاهداً للثورة منذ البداية، وأن ذلك كان حبيساً في نفسه؟!، فهذا ما لاأستطيع تأكيده، ولكن انطلاقاً من الساعة التي وضحت فيها نواياه السيئة سوف أحكي: عندما احتل الامبراطور مانويل العرش الامبراطوري، أصبح أندرونيكوس مسؤولاً عن كيف يمكن للرومان تطويرتسليحهم من أجل المستقبل، وكانت العادة بالنسبة لهم من قبل التسلح بترسة مستديرة، وأن يحمل معظمهم جعباً، وتقدير مصير المعركة بالقسي، وقد علمهم حمل [ترس] واحد يصل إلى أقدامهم، كما وعلمهم استخدام الرماح الطويلة، وممارسة الفروسية

ببراعة، راغباً في جعلهم ينتقلون من الاستعداد لحرب إلى حرب، وغالباً ماعتاد على ممارسة الفروسية، وتطبيق مايشبه المعركة، وذلك بوضع تشكيلة أمام أخرى، والقيام بحملات برماح بدون أسنة، وأقاموا مناورات بالسلاح، وهكذا برع الرومان في حقبة قصيرة في الأسلحة الفرنسية والايطالية، ولم يعش الامبراطور نفسه نائياً عن هذه الصراعات والتدريبات، بل كان يصطف في الصفوف الأولى، يستخدم رمحاً لا قرين له في الطول والحجم، ثم إنه بالاضافة لما قيل ربطت راية ذات طول عظيم إلى رمحه هذا، ونظراً لأنها كانت مقسمة إلى ثمانية أقسام أطلق عليها بالعادة اسم «أقدام ثمانية»، وقد قيل في الحقيقة انه عندما جاء ريموند إلى بيزنطة اندهش وظن أن في المسألة خدعة ما، علماً بأن ريموند هذا كان رجلاً يشبه هرقل الأسطوري، ولذلك اقترب من الامبراطور وسأل أن يرى الرمح نفسه والترس، ولدى حمله لهما، أدرك الحقيقة، وأعلن عن دهشته لما اكتشفه.

١٧- وعندما كان الامبراطور مرة مشغولاً في هذه الصراعات [الوهمية] في هرقلية السالفة في منطقة مسينا [بيلاغونيا —بيتولا الحالية](٤٠) أصيب جون بن أندرونيكوس السيباتوكراتور [أخو مانويل] مباشرة بجرح في إحدى عينيه، وذلك بطعنة من رمح ايطالي، وكان شاباً وسيماً ورشيقاً، وقام مانويل بترقيته إلى Protovestiarios ، ثم رفعه إلى رتبة الـ Protosebastoi (٤١) ، وقيل أثر هذا كثيراً على نفسية أندرونيكوس، فعمل منذ ذلك الحين بلا انقطاع بالتآمر والنشاط الخياني، وعندما كان بعد ذلك في القيادة في كليكية، ربح إلى جانبه ملك فلسطين وسلطان الترك، وبعدما عهد إليه بحكم نيسوس وبرانيتشيفو، كما ذكرنا من قبل، تعهد في رسالة بعث بها إلى الملك الهنغاري، أنه إذا ما أسهم في مساعدته على تنفيذ نيته باغتصاب العرش، سيتنازل في حال نجاحه في أغراضه، عن كل ادعاء بكل من برانيتشيفو ونيسوس، وذلك اعترافاً

بفضله، واحتياطاً منه أنه إذا ما تمّ كشف هذه الأشياء، ولكي لايكون موضع شك في المستقبل، قرر التحول إلى اتجاه آخر، وبناء عليه أفشى إلى الامبراطور عن وجود مؤامرة خيانية يدبرها بعض الشخصيات القوية في هنغاريا، فهؤلاء اتصلوا به ليتملكوا علاقات صداقة معه، والذي قصده من ذلك أنه يمكن وضعهم تحت سلطته بكل سهولة، وكان الامبراطور —على كل حال— على دراية بما يدبر، فقد وصلت إلى يده الرسالة التي وافق فيها أندرونيكوس على التعهدات السالفة الذكر مع الحاكم الهنغاري، ورغب مانويل في امتحانه، فسمح له أن يفعل هذا دون تستر، وتصور أندرونيكوس مقتنعاً أن كلّ نوع من الريبة قد زال من حوله بالنسبة للمستقبل، فبعث برسل من عنده إلى كل من ملكي الهنغار والألمان ليجذبهما نحوه ليقدما حتى إلى تقديم العون له في اللحظة المناسبة.

وبعدما دبر أندرونيكوس هذا، عاد إلى بيزنطة [١١٥٤] متظاهراً بأنه أتم ابرام المعاهدة بين الرومان والهنغار، وظل الامبراطور متمنعاً عن الحاق الأذى به، ولاأدري هل كان سبب هذا حبه له وعنايته به (ذلك أنه كان معجباً به إلى أبعد الحدود، لأنه كان من العمر نفسه مثله، وتشارك معه في النشأة والتعليم، لابل في الحقيقة تدرب معه على السباق والمصارعة ورياضات أخرى كثيرة) أو كان في ذهنه شيئاً آخر.

عندما كان أيضاً مرة في هرقلية المسينية —والتي يدعوها الرومان الآن باسم بيلاغونيا متبعين بذلك إحدى اللغات المحلية— ذهب الامبراطور في إحدى رحلات الصيد الليلية، حسبما كانت عادته مراراً [١١٥٤]، وبعث به النبلاء المشرفون على تدريباته الجسدية ضد دب، وسلحوه بكل ماهو محتاج لمنازلة دب متوحش على الأقدام بوساطة الرمح، وروي أنه كان بالدرجة الأولى واضعاً على صدره درعه، وكان بالوقت نفسه شاكي السلاح تماماً، محترساً —كما قيل— ضد مؤامرة يدبرها اسحق

(أخوه) (٤٢) السيباتوكراتور، والـ Stratarchos الأكبر، علماً بأن اسحق لم ينجح بالنهاية في أكثر من الاستيلاء على الأختام الامبراطورية، التي كان الامبراطور يصدق بها عادة على المنح، هذا وهو لم يأخذهم بدون تسويغ، بل أخذهم لسبب، أنا مقبل على قصه:

بينما كان مقيماً في ميلانغيا في موضع اسمه ميتابول Metabole، ألقيت أثناء إحدى الولائم خطب أمام الامبراطور، وفي الوقت الذي أجمع فيه الخطباء على الثناء على أفعال الامبراطور، آثر اسحق مدح أبيه وتفضيل أعماله على أعمال أخيه، وكان الامبراطور مسروراً لما قاله، فقد كان يعجبه أن يكون أدنى من أبيه، وفي الوقت الذي بدت فيه كلمة اسحق مملة بالنسبة للآخرين، لم يقف في خطابه عند هذا الحد، ولئن كان معقولاً التفوه بمثل هذه الأشياء اظهاراً للاخلاص للامبراطور الراحل، وهذا شيء، أعتقد أن كثيراً من الرجال يعرف كيف يقوم به، ثم إن تقديم المديح من قبل الأحياء إلى الذين ليسوا على قيد الحياة، هو بالتأكيد برهان على المشاعر الطيبة نحوهم، غير أن اسحق أضاف إلى هذا أشياء من قوارص الكلام، وتكلم بمشاعر بغيضة نحو الابن، مما أدى إلى نشوب شجار واحتدامه، واندفع أندرونيكوس هذا يشتم السيباتوكراتور، وكان على وشك حرمانه من رأسه، لولا أن الامبراطور مدّ ذراعه، وقام ابن خاله جون دوكاس بادخال السوط الذي يغمز به بالعادة فرسه، تحت السيف الهاوي، فأنقص بذلك من تأثير الضربة وأضعفها وجعلها تصيب حنك أندرونيكوس، وأنقذ بهذه الطريقة، وذكرنا أن الامبراطور مدّ يده فوق أندرونيكوس، ولذلك أصيب، ولم تكن اصابته في الحقيقة اصابة قاتلة، بل جرح قطع اللحم قليلاً، وخلف ندبة على رسغه طوال الحياة، وعلى هذا أطفئت هذه الخصومة التي اشتد أوارها، وأبعده الامبراطور، وطرده من حضرته لبضعة أيام، واستجابة منه لما حكم به جون، فرض عليه غرامة أدنى مما تحدد بالقانون(٤٣).

ودعونا الآن نعود إلى حيث كنا من سياق الخبر.

١٨- وبما أن أندرونيكوس كان يعرف أن الامبراطور ذاهب في حملة صيد تستمر طوال الليل، قام بتسليح عدد كاف من أتباعه الايزوريين، الذين تقدم لهم أن حلفوا له أنهم سيقاتلون إلى جانبه ضد كل انسان، وبعدما أخذ أسرع فرس بين خيوله، ذهب معهم إلى البقعة المحددة، ومركزهم هناك بعيداً قليلاً في المكان الأكثر كثافة في الأشجار، وأوقف فرسه، واقترب من خيمة الامبراطور وهو على ظهر بغل، وهناك ترجل، وتوجه يجري متقدماً سيراً على الأقدام بكل هدوء وقد حمل مدية في يده اليمنى، وخشية منه أن يجري تعقبه من قبل أي انسان، فقد ارتدى معطفاً ايطالياً عوضاً عن معطفه العادي، ولكن عندما لاحظ أنه شوهد، (لأن الذين كانوا يحيطون بالامبراطور النائم قد شهروا سيوفهم، وكان بينهم ابن اخت الامبراطور جون [الـ Protosebastos] فهو كان أول من رأى اقبال أندرونيكوس) وأدرك أندرونيكوس تماماً ذلك، فجلس فوق الأرض، وتظاهر بالقيام بافراغ مافي أحشائه، وبعد وقت قصير انسحب، وبذلك أخفقت هذه المؤامرة هناك.

ولكن بعد مضي بعض الوقت، جاء مع مزيد من الايزوريين، وأقبل في الليل وهو شاكي السلاح لمهاجمة الامبراطور، وعندما رفع الخبر إلى الامبراطورة [بيرثا—ايرين] من قبل ألكسيوس، الذي كان آنذاك مسؤولاً عن الاستقرار في القصر (يدعو الرومان هذا المنصب Protostrator) (٤٤)، ذهب واحد من رجال الحرس مباشرة نحو الامبراطور ليحذره من المؤامرة، ثم أرسل اسحق(٤٥) —وكان من أصل بربري، ومحط الثقة الخاصة والعناية من قبل الامبراطور— مع ثلاثمائة رجل مسلح، لكن لم يكد اسحق يصل إلى البقعة حتى كان الامبراطور قد علم بمجريات الأحداث، وبينما كان البقية قلقين وحائرين حول أنفسهم (لأنه حدث أن كان معظمهم ممتطين البغال) بين أن عليهم تجنب الطريق المباشر

الذي يقود إلى المعسكر والخيمة الامبراطورية، بل أشار بيده ليسيروا على الطريق غير العادي وغير المطروق، كما وتوجب عليهم عدم السير بشكل معلن، بل على شكل أفراد موزعين، وقال: «بهذه الصورة نبدو وكأننا بعض الأشخاص العائدين من جمع المؤن ومتوجهين نحو الخيم المرئية هناك»، وذهب الامبراطور على هذه الحالة غير هياب إلى خيمته، لكن حدث أن دباً متوحشاً قد اصطدم بجون السالف الذكر (البروتوسيباستوس) وعضه بأنيابه، وما ان علم الامبراطور بهذا حتى عاد نحوه، واتخذ الاجراءات المناسبة للعناية به، ثم غادر،وتصرف بذاته بشكل كريم كبير تجاه هذه القضية إلى حد أنه لم ينتقد أندرونيكوس حتى بنظرة، وتظاهر أندرونيكوس أنه لايعرف شيئاً عن المسألة، واعتنى عناية فائقة بالفرس الذي سلف وذكرته، وكان واضح التحامل بحديثه وآرائه ضد جون، وعندما سأله الامبراطور لماذا يفضل العناية بهذه الفرس قال: «من أجل انني عندما أحرم أشد أعدائي مرارة من رأسه، سوف أهرب عليه وأنجو»، وظهر بذلك وكأنه يشير إلى البروتوسيباستوس [جون]، وأعتقد [مانويل] أن الرجل كان مصاباً بعقله، ولهذا السبب فصله وأبعده عن حاشيته وأتباعه وأودعه السجن في القصر. [حوالي١١٥٥-١١٥٦]»(٤٦).

١٩- وهكذا أزيح من الطريق، لكن بالنسبة لملك الهنغار الذي لم يسمع شيئاً عما حلّ بأندرونيكوس، فقد قام بحشد قوى من التشيك، والساكسون ومن أمم أخرى، وتهيأ لحصار برانيتشيفو [١١٥٥]، وأعتقد أن الذي أثاره وحركه ماكان أندرونيكوس قد وعده به، ولدى سماع الامبراطور بذلك استطار دهشة تجاه ماسمعه، وتساءل حول مصداقية الهنغار، وعن السبب الذي حدا بهم إلى عدم مراعاة العهود التي قطعوها على أنفسهم مؤخراً، وتقرر لديه أن المسألة لابدّ وأن تثير بسرعتها الخوف، لهذا بادر على الفور بالذهاب نحو الدانوب، وإدراكاً منه أن أتباعه لن

يكونـوا مكافئين في القتال للجيش الهنغـاري (لأن القوات الرومانيـة كان كل منها باقياً في منطقته بسبب أن الدولة لم تواجه عدواناً من قبل أحد من أي اتجاه منذ زمن بعيد) قرر أن يعمل كما يلي: كان هناك مكاناً اسمه سميلس(٤٧) Smeles يمتلك خصـائص دفاعية معتبرة، لذلـك قرر الاستيلاء عليه، واتخاذه قاعدة لحملته ضد الهنغار.

ومن أجـل أن يقوم أهـل برانيتشيفـو بالوقـت نفسه بحـراسة مـدينتهم لصالحه، كتـب إليهم رسـالة أخبرهـم فيها أنـه سيصل إليهـم بعد وقـت قصير، وعهد بالرسـالة إلى واحد من جنوده، وأمره أن يـرمي بها إلى المدينة بعد ربطها على سهم، ونفـذ الجندي ماأمر به، غير أن الرميـة ذهبت أبعد مما هـو محتاج، ووقـع السهم في أيـدي الهنغار،فـاستولى عليهـم الانزعـاج ودبـت بين صفوفهـم الفوضـى، فـألقوا النـار في آلات دك الأسوار، وكـل ماكـانوا أعـدوه للحصار، وتـوجهوا نحـو نقطة عبـور الدانـوب، فوجـدوه فائضـاً (ذلك أن عـاصفة قد أوصلـت مياهـه إلى أعلى ارتفاع) فـأسرعوا بالتوجه نحو بلغراد.

وعرف الامبراطور بهذا، وعلـم أن بورج Boric` ، حاكم البـوسنة، وهي منطقة صربية(٤٨) —وكان قد التحـق بحلفاء الحكام الهنغار— قد عـاد إلى أراضيه، فـاختار الجزء الأعظـم شجـاعة بين الجيـش الذي كـان معه، وأرسلـه للاشتبـاك مع بـورج، وقاد هـذا الجيش بـاسيل، الـذي ورد ذكـره من قبـل، والـذي جاء مـن أسرة متواضعـة، لكـن الامبراطور عينـه Chartoularios(٤٩)، وذهب الامبراطور مع بقيـة الجيش، وتبعه لكن على مهـل، وكان بـاسيل، على كـل حـال، ناسيـاً، كما أظن، لماذا أرسلـه الامبراطور وليتحارب مـع من، وفيما هو زاحف بـالسرعة القصوى، اقترب من الجيـش الهنغاري، واصطـدم بطلائعه، وردهـا إلى الخلف، ثـم انقض على وسـط القـوة الهنغـاريـة، وخطط لنيـل نجـاح كبير، وقـاتلهـم وهـم مذعـورين ورمى بهم في لجة الفوضـى، وهكذا حقق بسرعة شيئـاً لم يكن

مطلقاً في حسبانه.

ذلك أنه خيّل للهنغار في البداية أن الامبراطور، كان هو الذي يدير دفة هذه المعركة، فهربوا بشكل فوضوي، وغرق كثير منهم في النهر من الذين تكاثروا فوق القوارب أثناء جوازه، لكنهم ما ان لاحظوا أن الامبراطور من خلفهم ولم يصل بعد، وأن باسيل هو الذي يقود الجيش، حتى تشجعوا، واستداروا، وواقفوا الرومان، وصحيح أن الرومان كانوا أقل بكثير عدداً من الأعداء، مع ذلك قاوموهم، وسقط العديد من القتلى على الطرفين، واستمر الحال كذلك حتى بدأ البلغار —الذين كانوا بخدمة ستيفن بن غيزا(٥٠)، وكانوا حلفاء مع الرومان يقاتلون إلى جانبهم— بالفرار، وسقط أثناء المطاردة على الطريق التي تلت عن قرب جميع الهنغار الذين كانوا مع ستيفن مع كثير من الرومان، وأنقذ آخرون حياتهم بالهرب وكان من بينهم القائد باسيل.

وعندما حملت هذه الأخبار إلى الامبراطور، وذلك بالاضافة إلى أن سكان بلغراد كانوا يفكرون بالثورة والتخلص من الرومان، شعر بقلق عظيم، فبعث بجون كانتاكوزينوس Kantakouzenos ليقوم أولاً بالاستقرار بالمدينة التي اضطربت بمشاعر العصيان، وثانياً ليتولى دفن أجساد القتلى الرومان، وليدعو البقية من الفرار من حيث كانوا منتشرين في المنطقة ومختبئين فيها، وكان مانويل على كل حال غاضباً إلى أبعد الحدود بسبب ماحدث، وكان متحرقاً ومتشوقاً للحاق بالهنغار، وعندما لم يوافقه الرومان على هذا قال: «لكن أيها السادة، إنه عار عليّ، وأنا أناضل في سبيل رفاه الرومان، أن أتراجع أمام المصائب»، وعندما سمع أن قوات الهنغار لم تكن بعيدة عنه، تخلى عن المحاولة، وفي الوقت نفسه كان كانتازينوس قد أكمل الأعمال التي أرسل من أجلها، وعاد، ومعه مربوط بالسلاسل الناس من بلغراد الذين كانوا —كما قيل— يحاولون العصيان، ثم تحرك مانويل من هناك وأمضى الشتاء على مقربة من

مدينة بيرهويا Berrhoia [ستارازاغورا Starazagora].

وفي الربيع[١١٥٦] عاد إلى هنغاريا، وذلك بعدما جمع قواتاً من كل اتجاه، ذلك أنه كان متشوقاً ومليئاً بالرغبة ليخترق البلاد إلى أقصى أجزائها، وفي هذا المقصد أقام معسكراً على شواطىء الدانوب مباشرة ومعه جميع قواته، ورست السفن التي جاءت من بيزنطة، هناك في أعداد كبيرة، وأقامت تنتظر القيام بحمل القوات المسلحة أثناء الجواز، ولدى ادراك الملك الهنغاري أن أموره كانت بالفعل في حالة صعبة، تحول نحو الرسل، فبعث إلى الامبراطور برجال كانوا ذوي مناصب عالية في بلاطه، ووعد باعادة الأسرى الرومان على الفور، وأنه من الآن فصاعداً سيطيعه في كل شيء يرغب به، وبدا الامبراطور في البداية ميالاً تماماً لرد الرسل ورفض عروض السلام، ثم تراجع نحو قبول مطالبهم، وأنهى السفارة بالاتفاق على الشروط المذكورة، وعلى هذا الأساس تمت إعادة جميع الأسرى الذين أخذوا —كما ذكرنا— في المعركة المتقدمة، ولقد أعيدوا إلى المعسكر الروماني، وأعيد معهم أيضاً الأسلحة والخيول وكل شيء كان من أسلاب المعركة، أما بالنسبة لما هلك من خيول وثيران، فلقد تمّ التعويض عنهم ببدائل حيوانية جمعت من السكان المحليين بين الهنغار، وبإنهاء الحرب على هذه الصورة، عادوا إلى الوطن.

ومن هذه اللحظة بدأت الحرب الايطالية وتحركت بشكل كبير، وهي الحرب التي كنتُ قد تحدثتُ عن بداياتها، وإذا ماعدنا قليلا إلى الوراء ننتقل للحديث عنها.